الفصل الثاني

أسرة الشريف الرضي

بحثت في كتب التاريخ كثيراً لعلي أظفر بشيء يكشف لنا القناع عن اسرة الشريف ولكن عبثا كان ذلك . فلقد ذهبت مجهوداتي أدراج الرياح ولم أعثر إلا على أخبار قليلة جداً عن أمه وأبيه وأخيه المرتضى أجل لقد وضع الشريف كتابا خاصا عن سيرة والده ولكنه ضاع فيما ضاع من الكتب ولم يصلنا منه إلا اسمه .

الشريف الرضي من نسل علي بن أبي طالب فهو علوي يدين بأمامة جده علي ويرى أنه أحق بالخلافة من غيره لذلك كانت أسرته من الأسر المعارضة للخلفاء العباسيين في السر وفي الجهر والعاملة على إزالة حكمهم ومحو سلطانهم .

أما أبوه فهو الحسين بن موسى يكنى أبا أحمد ويلقب بالطاهر ذي المناقب وقد خاطبه بهاء الدولة بالطاهر الأوحد . ولد سنة ٣٠٤ هـ وكان محترما مبجلا كما كان سياسيا موفقا وكثيراً ما نجح في فض المشكلات التي

كانت تقوم بين الخلفاء العباسيين وملوك بني بويه أو التي كانت تقوم بين أفراد آل بويه أنفسهم . وقد وصفه ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة بقوله « كان جليل القدر عظيم المنزلة في دولة بني العباس ودولة بني بويه والأمراء من بني حمدان وغيرهم . وكان مبارك الغرة ميمون النقيبة مهيبا نبيلا ماشرع في إصلاح أمر فاسد إلا صلح على يديه » .

والظاهر أن بعض حساد الطاهر كادوا له وسعوا بينه وبين عضد الدولة فنقم عليه وأمر بسجنه باحدى قلاع بلاد فارس فبقي بها حتى مات عضد الدولة وخلفه ابنه شرف الدولة فأطلق سراحه واستصحبه مع حاشيته حين قدم بغداد . وفي ذلك يقول الشريف الرضي :

طلوع هداه الينا المغيب ... ويوم تمزق عنه الخطوب
لقيتك في صدره شاحبا ... ومن حلية العربي الشحوبه
تغربت معتأنساً بالبعاد ... والليث في كل أرض غريب
وأحرزت صدرك للنائبات ... وللداء يوما يراد الطبيب

وهي خمسون بيتاً .

وكثيراً ما مدح الشريف أباه بقصائد طويلة ومن أمثلة ذلك قوله من إحدى هذه القصائد .

يا ابن النبي مقالا لا خفاء به ... وأحسن القول فينا قول مختصر
رأيت كفك مأوى كل مكرمة ... إذا تواصت أكف القوم بالعسر

قد طاب فرعك واهتزت أراكته في المجد ان المعالي أطيب الشجر

وقد ولى الطاهر نقابة الفاطميين وكذا النظر في المظالم والحج بالناس وكان ينزل عن أعماله أحيانا لابنه الشريف الرضى تهدئة لخاطره الثائر ولأن الرجل كان قد تقدم في السن فنالت منه الشيخوخة ما نالت وأثر الهرم في عينيه فأصبح لا يستطيع القيام بأعباء هذه الأعمال . وقد توفي الطاهر سنة ٤٠٠ هـ بعد أن عمر أكثر من تسعين عاما . وقد رثاه ابنه الشريف بقصيدة أبدع فيها كل الابداع وأجاد فيها كل الأجادة ومطلعها .

وسمتك حالية الربيع المرهم وسقتك صاقية الغمام المرزم
وعدت عليك من الحيا بمودع لا عن قلى ومن الندى بمسلم
قد كنت أهذل قبل يومك من بكى فاليوم لي عجب من المتبسم
وأذود دمعي أن يبل محاجري فاليوم أعلمه بما لم يعلم
لا قلت بعدك للمدامع كفكفي من عبرة ولو أن دمعي من دمي
إن ابن موسى والبقاء إلى مدى أعطى القياد بمارن لم يحطم

وهي أكثر من تسعين بيتا .

ورثاه أبو العلاء المعري بقصيدة فذة جاء فيها

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المصطاف
الطاهر الآباء والأبناء والـ أثواب والآداب والآلاف

هلا دفنتم سيفه في قبره معه فذاك له خليل واف
يالابس الدرع الذي هو تحتها بحر تلفع في غدير صاف
فارقت دهرك ساخطا أفعاله وهو الجدير بقلة الانصاف

* * *

أما أخوه فهو علي المرتضى تولى نقابة الطالبيين بعد وفاة أخيه الرضى وكان أديباً شاعراً وله تصانيف في فقه الشيعة وأصول الدين وقد وصفه ابن بسام بقوله « كان هذا الشريف امام أئمة العراق بين الاختلاف والاتفاق إليه فزع علماؤها وعنه أخذ عظماؤها » وكان المرتضى يقول الشعر.

وأم الشريف هي فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن علي بن عمر بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب. ملك جدها الحسن بلاد الديلم وقامت بينه وبين ملوك الدولة السامانية حروب كثيرة. وتوفي بطبرستان سنة ٣٠٤ هـ

وكانت فاطمة تعنى بشؤون ولديها عناية عظيمة وتحرص على تثقيفهما وتهذيبهما. ولقد روى أبو الحديد المتقدم ذكره أنها دخلت يوما المسجد الى عبد الله محمد بن النعمان أحد فقهاء عصره وحولها جواريها وبين يديها ابناها محمد الرضى وعلي المرتضى وكانا صغيرين فقام اليها وسلم ثم قالت أيها الشيخ هذا ولداي قد أحضرتهما اليك لتعلمهما الفقه فتولى تعليمهما. ولقد توفيت في ذي الحجة سنة ٣٨٥ هـ فرثاها

ابنها الرضى بقصيدة تسيل العبرات نذكر منها .

أبكيك لو نقم الغليل بكائى وأقول لو ذهب المقال بدائى
وأعوذ بالصبر الجميل تعزيا لو كان بالصبر الجميل عزائى
طوراتكاثرنى الهموم وتارة آوى الى أكرومتى وحيائى
كم عبرة سنهتها بأناملى وسترتها متجملا بردائى
أبدى التجلد للعدو ولو درى بتململى لقد اشتفى أعدائى
فارقت فيك تماسكى وتجملى ونسيت فيك تعزى وابائى

ولا نعرف شيئا عن زوجة الشريف ولا عن أولاده اللهم إلا ابنه عدنان فانه تولى نقابة الفاطميين بعد وفاة عمه المرتضى . كما أننا لم نتوصل الى شىء من أخبار أقاربه ولا نعرف الا شعرا قاله فى مدح خاله ورثاء عمه .

وحسبنا أن نقول ان بيت الشريف من البيوت العريقة التى جمعت بين شرف الحسب وشرف العلم ونالت عند ملوك آل بويه وخلفاء بنى العباس مكانة رفيعة ومنزلة سامية ودرجة عالية وهى جديرة بما نالت ، خليقة بما كسبت .

نسبه

(١)

الشريف الرضي هو أبو الحسن بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب جد النبي . ثم اختلف المؤرخون فيمن بين عدنان واسماعيل . والحق أننا نظلم التاريخ اذا ذهبنا إلى مايذهب اليه المؤرخون دون أن نفكر تفكيراً دقيقاً ونبحث بحثاً عميقا غير متأثرين بعقيدة أو مذهب . ولكي نقدم للقارىء حكما صحيحا بعيدا عن السفسطة الدينية كل البعد يجب علينا أن نضع هذه القضية أمامنا كما رواها مؤرخو العرب ومن نحا نحوهم من كتاب العصر الحاضر ثم نبدي مايعن لنا من اعتراضات وملاحظات .

(١)

زعموا أن ابراهيم لما فعل في هداية قومه فر إلى فلسطين مستصحبا معه زوجه سارة . ومن فلسطين ارتحل إلى مصر وبها يومئذ ملوك

الهوكسوس . وكانت سارة جميلة . وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوجات فأظهر ابراهيم أن سارة أخته خشية أن يقتله الملك ليتخذها زوجاً له

الاعتراض :

نحن لانستطيع أن نصدق ماروا المؤرخون بهذا الصدد بل نراه أشبه بالأساطير منه بالتاريخ الصحيح .

(٢)

ثم رووا أن الملك أراد أن يتخذ سارة زوجة له فرأى فى المنام أنها ذات بعل فردها الى ابراهيم بعد أن عاتبه وأعطاه هدايا من بينها جارية تدعى هاجر ولما كانت سارة قد بلغت السنين الطوال مع ابراهيم ولم تلد ، دفعته ليدخل بهاجر فدخل بها فلم تبطىء أن حملت وولدت له اسماعيل . وبعد أن شب وترعرع حملت سارة وولدت له اسحاق .

ونحن لانستطيع أن نطمئن الى هذا القول

٣

ثم ذكروا أن اسحاق قد شب وترعرع الى جانب اسماعيل وتساوى عطف الأب على الاثنين فاغضب ذلك سارة لانها رأت أن هذه التسوية بين ابنها وابن هاجر أمتها غير لائقة بها . وأقسمت ألا تساكن هاجر ولا ابنها حين رأت اسماعيل يضرب أخاه . وأحس ابراهيم أن العيش لايطيب له وهاتان المرأتان فى مكان واحد فذهب بهاجر وابنها ميمما شطر الجنوب حتى وصل الى الوادى الذى تقوم به مكة اليوم . وترك اسماعيل وأمه وترك لهما بعض ما يتبلغان به . واتخذت هاجر عريشا أوت اليه مع ابنها وعاد ابراهيم من حيث أتى .

الاعتراضات :

مامعنى ذهاب ابراهيم بابنه الصغير وأمه هاجر الى واد سحيق قفر صحراوى لاماء فيه ولانبات ولاعمران ؟ ؟ ؟ هل أراد أن يهلكهما فقذف بهما الى هذه الصحراء المحرقة ؟ ؟ ؟ كيف رضى ابراهيم أن يحمل زوجه وابنه وفلذة كبده ويذهب بهما الى هذه الصحراء التى لاعيش فيها ولاماء ولاسكن ولازرع ولاعمران ويتركهما فى الحر الشديد والشمس المحرقة صيفا وفى البرد القارس شتاء يعانيان آلام الجوع والعطش ويذهب

هو من حيث أتى ليعيش مع زوجته الأولى فى سعادة وهناءة ؟؟؟؟ وهل بلغت القسوة بابراهيم مبلغها فقذف بابنه الصغير الى جوف هذه الفلاة ؟؟ وكيف أمن اعتداء الناس على عرض زوجته هاجر وقد كانت فى ريعان شبابها ؟؟؟ وهل ضاقت فلسطين حتى أن ابراهيم لم يجد أمامه مكانا صالحا لاسكان هاجر وابنها اسماعيل فذهب إلى هذا الوادى البعيد ؟؟؟ ولم لم يسكنه بالقرب منه ويجعل له بيتا يعيش فيه هو وأمه بدلا من أن يذهب بهما الى هذه الصحراء المحرقة ؟؟؟ ان ابراهيم أرأف من أن يعمل مثل هذا العمل وأرحم بابنه الصغير من أن يقصيه الى هذه الصحراء الجرداء .

ثم قالوا إن ابراهيم ترك ابنه اسماعيل وأمه ومعهما مايتبلغان به من زاد . ولنا أن نسأل هل يموتان جوعا اذا نفد منهما هذا الزاد ؟؟ ؟ وكيف يتركهما على صخرة دون مسكن يأويان اليه ؟؟؟ ألا يتحرك قلب ابراهيم لمثل هذا الأمر ؟؟؟ ألا يشفق بابنه الصغير فيتركه دون مسكن وبغير قوت ؟؟

مثل هذه الاسئلة نلقيها على أنفسنا ولا نستطيع أن نجيب عنها . وهجزنا عن الاجابة عنها اجابة يقبلها العقل ويؤيدها المنطق يجعلنا نشك فى أمر هذه القصة .

إن الذى يقبله العقل هو أن ابراهيم أسكن ابنه فى فلسطين على مسافة غير بعيدة منه . وكان يتردد عليه لزيارته هو وأمه . ثم إنه من

المعقول ان اسماعيل تزوج وخلف أولادا أخذوا يتكاثرون . بمرور الزمن وأن هؤلاء الابناء كانوا يسكنون فى جنوب فلسطين ثم انهم كانوا يشتغلون بنقل البضائع وحراسة القوافل وربما اشتغلوا بالتجارة . وكانوا يرحلون الى مكة فاختلطوا بالعرب واندمجوا فيهم بعد أن تزوجوا منهم وأصبحوا بمضى الايام عربا فى عاداتهم وأخلاقهم وطباعهم ولغتهم ودينهم . هـذا هو الحق الذى لا ريب فيه وما عداه فهو باطل.

* * *

لا مرية فى أن بسطاء الأحلام من الناس سيفرقون عندما يصطدمون بهذه الحقيقة . ولكى نخفف من فرقهم ونقلل من روعهم نقول : —

ورد فى القرآن مانصه « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم الخ ... » وكان النبى ينفذ ماجاء فى هـذه الآية فيعطى « مؤلفة القلوب » أى الضعفاء فى الايمان شيئا من المال . وبقى كذلك حتى وفاته : فلما كانت خلافة أبي بكر طلب «مؤلفة القلوب» إعطاءهم ما كان مخصصا لهم حسب ماورد فى القرآن . وفعلا حصلوا على أمر ابي بكر فى دفعه لهم كتابة . وذهبوا الى عمر ابن الخطاب الذى كان كوزير له . فلما قرأ عمر هـذا الأمر مزقه وقال فى مقام التعليل « إن رسول الله كان يعطيكم هـذا المال ليقربكم من الاسلام ويزيل به شركم وفسادكم عن المسلمين . واليوم وقد أعز الله دينه وأعلا شوكته

ولم يبق من حاجة اليكم وإلى تأليف قلوبكم . ان تبتم فى الاسلام تبتم وإلا فليس بيننا وبينكم إلا السيف » ولم يعطهم شيئا .

فظاهر هنا أن عمرا قد خالف ماجاء فى القرآن كما خالف ما أقره النبى فى حياته . على أننا لانريد أن نذكر ذلك إنما نريد أن نذكر شيئا أهم من هذا بكثير . نريد أن نقول إن الأسلام قد استخدم المال كوسيلة لكسب الانصار والأعوان وجلب الأشياع والأتباع . فاذامن المعقول جدا ان يستخدم الأسلام غير هذه الوسيلة لنفس الغرض . وقد حدث ذلك فعلا . فابتدعت قصص كثيرة وردت فى القرآن بغير حساب . ومن هذه القصص مايدور حول ذهاب اسماعيل إلى مكة وإقامته بها . وقد سبق أن ناقشنا هذا الرأى مناقشة منطقية فاتضح فساده لكل من ألقى السمع وهو شهيد .

وإذا كانت عادة إعطاء « المؤلفة قلوبهم » قد وجدت من يبطلها فان البحوث التاريخية التى وردت فى القرآن لم تجد من يبطلها ويردها إلى حقيقتها . فلا ضير اذا على الأسلام والمسلمين إن نحن حاولنا ذلك

(ب)

قريش

قبيلة من قبائل العرب كانت تعيش عيشة عادية تشتغل بالتجارة وبنقل البضائع وحراسة القوافل . وكانت مكة تحت حكم الجرهميين . وهؤلاء انغمسوا فى الترف والنعيم فضعف أمرهم فقامت خزاعة وهى من أكبر قبائل العرب وأعظمها اذ ذاك واستولت على مقاليد الحكم فى مكة فهرب الجرهميون وتبعهم الاسماعيليون . وبقى أمر مكة فى يد خزاعة إلى أن انتزعه منهم قصى ابن كلاب وهو الجد الخامس للنبى .

وقد كان قصى رجل جد ونشاط وعمل متواصل فذلك مالبث أن أثرى ثراء عظيما من اشتغاله بالتجارة . وكانت سدانة مكة فى خزاعة لحليل ابن حبشية وكان رجلا ثاقب النظر حسن التقدير فما ابطأ حين طلب قصى يد بنته حبى أن رحب به وزوجه منها . ومات حليل بعد أن أوصى بمفتاح الكعبة لحبى زوجة قصى ولكن هذه اعتذرت عن ذلك وجعلت المفتاح لابى غبشان الخزاعى وكان هذا سكيرا فأعوزه

الشراب يوما فباع مفتاح الكعبة قصيا بزق من الخمر . وهنا كادت الحرب أن تقع بين خزاعة وقريش فاستعمل قصي ماله من نفوذ وجاه وجمع العرب حوله وبذلك تمكن من طرد خزاعة واستقل بالأمر وحده

وكان عبدالدار أكبر أبناء قصي لذلك خلف أباه في الاشراف على الكعبة ثم أعقبه أبناؤه من بعده . ولكن الحسد قد دب بين أبناء الأعمام فأجمع بنو عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل على أن ينتصبوا ما بأيدي أبناء عمهم . وانقسمت قريش الى قسمين : قسم يؤيد أبناء عبد الدار وقسم يؤيد أبناء عبد مناف . وأوشكت الحرب أن تقوم بين الطرفين لولا أن ركن الناس الى الصلح على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة وأن تبقى الحجابة والندوة واللواء لبني عبد الدار ورضي الفريقان بذلك .

وكان هاشم كبيرا في قومه وكان رجلا غنيا فولي السقاية والرفادة ويلاحظ أن قصيا هو أول من أوجد الرفادة وفرضها على قومه فكان يأخذ من كل منهم شيئا من المال ليصنع به طعاما يقدمه للفقراء من الحجاج وكان هاشم كريما جوادا وهو الذي سن رحلتي الشتاء والصيف . وظل هاشم تتقدم به السن حتى مات فخلفه أخوه المطلب . وترك هاشم ولدا صغيرا يسمى شيبة ظل مع أمه بيثرب . ولما رحل المطلب الى يثرب أحضر الغلام ودخل به مكة فرآه القوم فظنوه عبدا اشتراه

المطلب فتسايحوا عبد المطلب عبد المطلب فغلب على الغلام هذا الاسم وعرف به بين الناس . وتولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب . ولما كانت السقاية من الأمور الشاقه التي تحتاج إلى مناء شديد والى عمال يجلبون الماء من جهات مكه المختلفة ، فكر عبد المطلب في حفر بئر لازالت باقيه حتى اليوم وهي المعروفة ببئر زمزم وتم له ما أراد . ثم تزوج فأنجب أولادا كثيرين منهم ابو طالب وهذا خلف عليا وهو الجد الاكبر في الأسلام لصاحبنا الشريف الرضي .

يتبين لنا من هذه الاسطر القليلة التي كتبناها عن القرشيين ما جبلت عليه نفوس هؤلاء القوم من الحسد وما كمن في قلوبهم من الحقد والبغضاء وما فطروا عليه من الكيد والدس والاثانيه التي لا مثيل لها فلا ندهش بعد ذلك اذا رأينا القرشيين أنفسهم يتهالكون على الخلافة عقب وفاة النبي . كل امرىء يريدها لنفسه وكل فرد يرغب في الاستئثار بها دون سواه فتكتل بعضهم بالبعض الاخر أفظع تنكيل ومثل قويهم بضعيفهم أشنع تمثيل وسيرى القارىء ذلك مفصلا في غير هذا المكان

علي ابن ابي طالب

لما قتل عمر بن الخطاب انتخب عثمان ابن عفان للجلوس في كرسي الخلافة . وكان انتخاب هذا الرجل الغر مصيبة كبرى على المسلمين . فانه ما كاد يتسنم عرش الخلافة حتى اعتزل اصحابه وأقصاهم عن مجلسه وأعرض عن مشورتهم ولم يصغ لنصائحهم بل جمع حوله أقاربه من بني أمية يهتدي بهديهم ويسير على هواهم ويعمل برأيهم

بدأ أعماله المشؤومة بعزل جميع الولاة الذين عينهم عمر وبعث الى الامصار بأقاربه وذوي رحمه . وهؤلاء استبدوا بالامر ارتكانا على قرابتهم للخليفة فضج العالم الاسلامي من جورهم وعسفهم وذهبت الوفود الى مكة تلتمس من عثمان عزل هؤلاء الحكام . ولكن عثمانا لم ينظر في هذه الشكوى ولم يعطها العناية الكافية بل وعدهم بالنظر وأخلف الوعد وكذب على الناس بوعده إياهم بالنظر في شكواهم .

الناس يتألمون ويشكون من الضرائب الفادحة التي فرضها الحكام عليهم ، يستصرخون ويستغيثون وعثمان نائم في بيته لا يرق ولا يرحم ولا يلين ولا يشفق ولا يجد من دينه وازعا ولا من ضميره مؤنبا ولا من شعوره مؤاخذا . ولما ضاق الناس ذرعا بهذا الرجل الأناني أجمعوا على قتله فأفلحوا في ذلك وذهب عثمان جزاء سياسته الخرقاء

بعد مقتل عثمان اجتمع فريق من المسلمين وبايعوا عليا . ولكن هذا كان معرضا على أن يبايعه طلحة ابن عبد الله والزبير ابن العوام فانهما كانا من أجدر الناس بعده لهذا المنصب العظيم فتلكأ طلحة فهدده الاشتر النخعي وهو من أنصار علي - بضرب عنقه فأذعن خوفا وبايع بالرغم منه

* * *

لم يكن علي ابن أبي طالب بالرجل الذي يصلح لان يكون خليفة على المسلمين وذلك لأسباب كثيرة منها أنه كان مكروها من كثير من الشخصيات البارزة . امتنع عن مبايعته طلحه ابن عبد الله المتقدم ذكره والزبير ابن العوام وسعد ابن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وعائشه زوجة النبي . وتخلف عن البيعة من الانصار حسان ابن ثابت وكعب ابن مالك ومسلمة ابن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد ابن مسلمة والنعمان ابن بشير وزيد ابن ثابت ورافع ابن خديج وفضالة ابن عبيد وكعب ابن عمرة وكان هؤلاء يميلون الى عثمان ابن عفان لما كان يسبغه عليهم من أموال .

وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليا نذكر منهم قدامة ابن مظعون وعبد الله ابن سلام والمغيرة ابن شعبة .

فنستنتج من هذا أن عليا إدعى لنفسه الخلافة وهو كاذب فى دعواه . وأسرع إلى صعود المنبر كعادة من سبقه من الخلفاء وألقى فى الناس خطبة البيعة مع أن الذين بايعوه هم رهط قليل ممن لا قيمة لهم ولا أهمية .

***

ثم إن عليا افتتح أعماله بسياسة خرقاء تدل على جهل وقصر نظر . لقد بدأ بعزل الولاة الذين عينهم عثمان على الأمصار قبل أن تصل إليه البيعة . فكان هذا من أكبر العوامل التى أدت إلى فشله . ولقد نصحه بعض المخلصين له وحذره من عاقبة هذا العمل ولكن عليا أبى واستكبر وأصر على رأيه وأمعن فى العناد واستبد بالأمر غاية الاستبداد ولم يصغ لنصائح أصحابه الأقربين فكانت النتيجة وبالا عليه وعلى أبنائه من بعده

***

كان على ابن ابى طالب ضعيفا فى ميدان السياسة ضعفا تاما . فلقد كان الرأى العام عنه منصرفا فى العراق وفى مصر . ولم يكن له بالشام من الأنصار شىء يذكر ثم إن الرجل لا يعرف الخداع ولا المكر ولا الدهاء ولا غيره من الصفات التى يجب أن تتوفر فى كل سياسى يريد أن يظفر بأمنيته ويصل إلى غايته من أقرب طريق . وكان من نتيجة هذا

الغضه أن قتل فى حربه مع معاوية خلق كثير من خيرة رجال المسلمين

***

ثم إن أصحاب على الذين حاربوا معه لم يكونوا على رأى واحد ولم يكونوا على درجة من الاخلاص والحماس له بقدر ما كان عليه أهل الشام لمعاوية . فرأيناهم يمتنعون عن مواصلة القتال بعد أن كانوا على وشك القبض على معاوية ومحاشيته ويخدعون بهذه الحيلة التى دبرها لهم عمرو بن العاص وهى رفع المصاحف على أسنة الرماح . ثم خرج عليه فريق آخر وهم المعروفون بالخوارج ، وحاربوه وقاتلوه قتالا شديدا . وأخيرا تثاقل عليه بقية جنده وأصدقائه فلم يطاوعوه فيما أراد رغم الخطب الكثيرة التى ألقاها عليهم وبقى كذلك حتى قتل سنة ٤٠ هـ . قتله ابن ملجم

***

ولم تكن لعلى ابن ابى طالب هيبة القائد ولم يكن مطاعا من جنده . وها نحن نرى الرجل يدعو جنوده إلى مواصلة القتال فى موقعة صفين فيمتنعون عن ذلك ولا يلتفتون إلى صيحته ولا يستجيبون إلى ندائه

***

ومما قلل من شأن خلافة على أنها قامت على أيدى رجال ثوريين لا يميلون الى النظام ولا يرغبون فى الطاعة فكانوا يرون لهم فضلا عليه . ولقد هددوه بالقتل عندما رفض التحكيم ثم بدا لجماعة أخرى أن هذا

التحكيم كفر فانصرفوا عنه وخرجوا عليه وقاتلوه .

ثم لما دعاهم لقتاله معاوية تقاعسوا وتكاسلوا وأظهروا الجمود ثم إن أصحابه كانوا يضيقون عليه حتى فى الرجل الذى اختاره فى التحكيم فأنهم أرغموه على اختيار أبي موسى الأشعرى وكان هذا على درجة كبيرة من السذاجة والتغفل . ومن خطبه التى تنم على الغيظ الشديد والحزن العميق والسخط البالغ حده على أنصاره قوله « ياأشباه الرجال ولا رجال وياطغام الاحلام وياعقول ربات الحجال . والله لقد أفسدتم على رأيي بالعصيان ولقد ملأتم جوفى غيظا حتى قالت قريش ان ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لارأى له فى الحرب »

* * *

كان على ابن أبي طالب يرى أنه أحق بالخلافة من غيره لأنه ابن عم النبي . لذلك طالب بهذا الحق المزعوم منذ الساعة الأولى . لقد التقى العباس ابن عبد المطلب بعلى ابن أبي طالب فقال له « أبسط يدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ويبايعك أهل بيتك فأن هذا الأمر إذا كان لم يقال « اذا وقم تعذر تغييره » فقال على (ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ؟؟ .

ثم إنه لما بويع أبو بكر امتنع على عن المبايعة لانه كما قدمنا كان يريد أن يظفر بها فقال له أبو عبيدة ابن الجراح « ياابن عم . إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم

بالأمور ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالا فعمل لأبي بكر هذا الأمر . فقال على « الله الله يامعشر المهاجرين لاتخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه فوالله يامعشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت » ثم ما كان منه إلا أن حمل فاطمة بنت رسول الله وهي زوجته على دابة وأخذ يطوف بها في مجالس الأنصار تسألهم النصرة فكانوا يقولون هذا يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل .)

إن ادعاء على ابن أبي طالب هذا لايستند الى شيء من الحق فما كان محمد ملكا ولا امبراطورا حتى يرثه أقرب الناس اليه إذا كان نبيا والنبوة لاتورث . ولم يكن له إلا سلطان روحي على العرب ذهب بذهاب الرجل . وعلى ذلك فقول على ابن أبي طالب (لاتخرجوا سلطان محمد من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم) إن هو إلا مغالطة في مغالطة .

ويجب ألا يغرب على الذهن أن قرابة الانسان من النبي شيء وصلاحيته للحكم شيء آخر وربما يكون أحد الناس قريبا للنبي ولكنه لايملك من المواهب مايجعله سياسيا فذا يفيد المجموع ببعد نظره وذكائه . أفنلزم الناس على انتخاب من لايفيدهم بدعوى هذه القرابة ضاربين صفحا عن الاكفاء وذوى المواهب ؟؟

° ° °

أما وقد بحثنا عن حق على ابن أبي طالب في الخلافة وعن مبلغ قوة هذا الحق وقدنا آراء على تفنيدا لايدع مجالا للشك أصبحنا في غنى عن الرد على الشريف الرضي فيما كان يدعيه لجده من حقوق مضمت واعتدى عليها اعتداء لاتقره العدالة . قال الشريف

ردوا تراث محمد ردوا ليس التقضيب لكم ولا البرد
هل عرفت فيكم كفاطمة أم هل لكم كمحمد جد

نعم . أصبحنا في غنى عن الرد على هذا القول بعد الذي قدمناه وعلى غيره مما يراه المطالع لشعر الشريف منبثا بغير حساب .

° ° °

ولما قتل علي تولى بعده ابنه الحسن ولكن هذا تنازل عن الخلافة لمعاوية ثم مالبث أن مات فخلفه أخوه الحسين ثم قامت الحرب بينه وبين يزيد ابن معاوية . وكان الحسين كأبيه ضعيفا في ميدان السياسة انخدع بأقوال أهل العراق ووعودهم ناسيا خذلهم لوالده من قبل فخرج من مكة قاصدا العراق في وهط قليل من أصحابه فبلغ خبر ذلك إلى والي بني امية على العراق فسار الى لقائه في كتيبة من الجند ودار القتال بين الفريقين فقتل الحسين واستشهد جميع من معه بعد أن ذاقوا العذاب الأليم . ولم ينج من القتل الا النساء وطفل صغير هو زين العابدين واعتدى الجند على النساء اعتداء شنيعا وداسوا جثة الحسين

بأقدام الخيل وتركوها فى الصحراء تأكلها الغربان وحملوا رأسه الى الشام ووضعوها بين يدى يزيد الذى أخذ يضربها بقضيب من حديد كان فى يده

• • •

كان لمقتل الحسين بكربلا وقع سيء فى نفوس فريق من المسلمين فحقدوا على بنى أمية وتشيعوا لعلى وأولاده فعرفوا بالشيعة وقد انقسم هؤلاء الشيعة الى فرق كثيرة ذكرنا شيئا منها عند الحديث عن الدين . ومن بين هذه الفرق الاثنا عشرية والى هذه الفرقة كان ينتمى الشريف الرضى

مشكلة الخلافة

لا أكون مسرفا ولا مغاليا إذا قلت إن حالة الشرق قبل الاسلام كانت أحسن بكثير منها بعد ظهوره .

ربما بدا هذا القول غريبا عند الذين وضع التعصب الديني على أعينهم غشاوة من فوقها غشاوة وفى آذانهم وقرا . نعم ، ربما بدا هذا القول غريبا لهم ولأمثالهم ممن ينقادون خانعين لأحكام الدين من غير تفكير فى البحث الرشيد ولا إلمام بالموضوع مع التحقيق وما إلى ذلك من الدرس العميق الذى يتطلب الأحاطة بكل ناحية والنظر إلى مايستتر خلف ظواهر الأشياء نظرا مجردا عن الأغراض والعواطف خالصا لوجه الحقيقة ولوجه الحقيقة وحدها .

* * *

ماجاهد ابو بكر حبا فى الأسلام وحده وما حارب على فى سبيل الأسلام وحده وماضحى عمر فى الذود عن الاسلام وحده وما كافح عثمان هياما بالاسلام وحده . انما كان لكل واحد من هؤلاء مطامع شخصية تستتر خلف هذا الجهاد المصطنع وهذا الكفاح المتكلف وهذا الانتصار الزائف وهذا الاخلاص المبنى على غير أساس . نعم ، كانت تستتر خلف هذا الجهاد ووراء هذا الكفاح الأنانية والأثرة وحب الذات

والرغبة في السلطان . فما كاد النبي ينتقل من هذه الدار حتى مزق ثوب الرياء وانكشف الستار وظهرت حقيقة هؤلاء القوم الطامعين في الدنيا ومافيها الراغبين في التسلط والحكم . واشتد الجدال بين الأنصار والمهاجرين على الخلافة . فالأولون يدعون بأنهم آووا النبي ونصروه وعززوه وآزروه وعلى ذلك فيجب ان تكون الخلافة لهم ولهم وحدهم دون سواهم كثمن لهذا الانتصار .

والمهاجرون يذكرون أنهم أول من أسلم . وهم قبل كل شيء آل النبي . حموه وهو بين الأعداء بمكة واحتملوا في سبيل الدين كل عذاب وكل اضطهاد وعلى ذلك فهم أولى الناس بالخلافة .

وكانت الحرب أن تقع بين الفريقين لولا أنهم ليكونوا على استعداد للقتال لما خاضوا من المعارك الكثيرة التي قامت في أيام النبي . فآثروا السلام ومالوا اليه مؤقتا . وأجمع القوم على مبايعة أبي بكر فتم ذلك وأصبح هذا خليفة المسلمين .

وهنا وقف علي ابن ابي طالب غضبان أسفا . أجل ، انه يريد الخلافة لنفسه دون سواه لا لأنه من آل البيت ولا لأنه ابن عم الرسول . وقد تكلمنا عن محاولة علي ابن ابي طالب في الحصول على هذا المنصب في المقال السابق فلا داعي للتكرار الآن .

وما كان العرب براضين عن حكومة ابي بكر وفي ذلك يقول الشاعر

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيالعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكرا اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

أجل ، لقد شقت قبائل العرب عصا الطاعة وجاهرت بالعصيان إلا أن أبا بكر تمكن من إخضاعها بحد السيف . ثم مالبث أن وجه أنظار العرب نحو الغزو والاستعمار .

❁ ❁ ❁

واذا كان لابد من قول الحق فأننا نصرح بأن الخلافة كانت ولا تزال المصيبة العظمى والبلية الكبرى التي جلبت للشرق والشرقيين كل صنوف الشقاء وأنواع البؤس . والتاريخ أكبر شاهد على صحة ما نقول . فما كاد الخليفة الثالث يقتل جزاء سياسته الخرقاء حتى انقسم المسلمون إلى قسمين قسم يؤيد عليا وقسم يؤيد معاوية : واشتد القتال بين الفريقين وطالت الحرب فهلك من المسلمين خلق كثير . ثم أنه لما تولى يزيد ابن معاوية سير جيشه إلى المدينة فاستباحها وقتك بمن فيها فتكا ذريعا . ثم سار هذا الجيش إلى مكة فحاصرها حصارا شديدا وضربت الكعبة بالمجانيق فتصدعت جدرانها واحترقت ثياب الكعبة كما احترق الضريح النبوي . ويروى الجنود النيران معتقلة فيها لون وينشدون

خطارة مثل الفنيق المزبد نرمي بها أعواد هذا المسجد

ودخل الجيش مكة واعمل السيف في رقاب أهلها تقتل الرجال واعتدى على أعراض النساء اعتداء شنيعا . كل هذا ويزيد آمن في قصره بين الكاس والطاس يرتع في النعيم ويتمتع بما لذ وطاب

وحدث في أيام عبد الملك ابن مروان ماحدث في عهد يزيد. فقد ولى الحجاج على مكة والمدينة فذهب هذا ونكل بمن فيها تنكيلا شديدا وبطش بهم بطشا فظيعا واعتدى على المسلمين بالقتل والسجن

* * *

ثم جاء دور بني العباس. وأقبل عهد السفاح وماسبى كذلك إلا لكثرة ما استباح من دماء المسلمين وما سفك من دماء المسلمين وما هدر من دماء المسلمين.

اعتدى العباسيون على الأمويين وأقارب الأمويين وأنصار الأمويين اعتداء لم يشهد التاريخ له مثيلا. ومن أمثلة ذلك أن السفاح دعى فريقا من بني أمية وأظهر لهم الصفح والعفو. ودعاهم إلى مائدته ليتناولوا الطعام وبينما هم كذلك إذ دخل أحد الشعراء فأنشد هذين البيتين

لا يغرنك ما ترى من أناس أن تحت الضلوع داء دويا
فضم السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

وسرعان ماأمر السفاح عبيده فاعملوا السيوف في رقاب الامويين وكانوا يزيدون على التسعين. وأشار على الخدم ففرشوا الابسطة الفاخرة فوق هؤلاء القتلى ومنهم من هو في حالة الاحتضار وجلس السفاح هو وحاشيته على هذه الجثث يأكل وهو مطمئن البال مرتاح الضمير وأنين القتلى لا يزال مرتفعا ومسموعا. ثم أمر بنبش قبور بني أمية فاستخرجت جثة معاوية وفتح قبر ابنه يزيد وكذلك قبر عبد الملك ابن مروان. كما

استخرجوا جثة هشام ابن عبد الملك وأحرقوا هذه الجثث . وتتبع العباسيون الامويين حتى قضوا عليهم قضاءا تاما ومن ذلك أن السفاح أمر عامله على المدينة بقتل من فيها من الامويين فما كان من الوالى إلا أن قبض عليهم وأمر بذبحهم فذبحوا وجرت جثثهم فى الشوارع والطرقات ثم تركوا على قارعة احدى الطرق فأكلتهم الكلاب .

* * *

هذه صورة بشعة تمثل لنا ما كان عليه المسلمون من وحشية وهمجية نجزم بأننا لانجد لها مثيلا فى تاريخ العصر الجاهلى ولو أردنا أن نسرد من أمثال هذه الصورة لضاق بنا هذا الكتاب فنكتفى بالوقوف عند هذا الحد

***

وقد كان من الشائع بادىء ذى بدىء أن الخلافة شورى بين المسلمين وأن المسلمين وحدهم هم الذين ينتخبون الخليفة . وفى ذلك يقول الشاعر مخاطبا عمر ابن الخطاب

أنت الامام الذى من بعد صاحبه ... القى اليك مقاليد النهى البشر

لم يؤثروك بها اذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

ولكن لما توفى معاوية أصبحت الخلافة وراثية يرثها الابن الأكبر فالابن الأكبر . وبطلت الشورى وأصبحت أسمية فقط . ونحن نرى أن معاوية لما أراد أن يأخذ البيعة ليزيد ذهب الى المسجد . وهناك

وقف أحد الدعاة فقال : هذا أمير المؤمنين وأشار بيده الى معاوية فأن هلك فهذا وأشار بيده الى يزيد فمن أبى فهذا وأشار بيده الى سيفه

* * *

ولقد زاد اعتقاد العرب فى الخليفة على مر الأيام . فرأوا أنه يستمد أمره من الله وأن طاعته من طاعة الله وفى ذلك يقول الشاعر

أن الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

وكان لشيوع هذه الآراء وانتشارها أثر عظيم فى نفوس الشعراء الذين خلعوا على الخلفاء صفات الآلهة التى تسير الكون كما تشتهى وتحب . قال ابن هانىء الأندلسى يمدح المعز لدين لله الخليفة الفاطمى

ماشئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذى كانت تبشرنا به فى كتبها الأحبار والأخبار

* * *

ذكرنا أن الخلافة كانت شؤما على الشرق والشرقيين وذلك لأن الخلفاء استغلوا الدين فى كل شىء يعود عليهم بالخير والمنفعة . فباسم الدين استعبدوا الشعوب وباسم الدين أذلوا الشعوب وباسم الدين ضيقوا على الشعوب وحرموها كل حرية وكل استقلال .

ولقد أحسن مصطفى كمال رب تركيا الحديثة بقضائه على هذا الأثر البالى والطلل الدارس الذى لا محل لوجوده فى عصر النور والعرفان

***

هـذه كلمة قدمناها عن الخلافة التى كانت منتهى آمال الشريف الرضى وأقصى أمانيه . صبت اليها نفسه وسال عليها لعابه فعاش ينشدها ويغنى النفس بها ويعلل الخاطر بقرب الظفر بها . قال .

وأظن نفسى سوف تحملنى على الأمر الأشد
حتى أرى متملكا شرق العلى والغرب وحدى

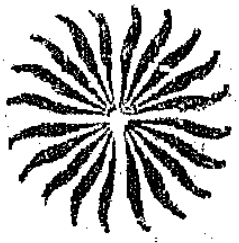

obeikandl.com

مولد الشريف الرضي

ولد الشريف الرضي سنة ٣٥٩هـ ببغداد في بيت والده. وكان ذلك في عصر المطيع لله الخليفة العباسي. وسمي محمدا وكني أبا الحسن. أما ألقابه فكثيرة أشهرها ما لقبه به بهاء الدولة وهو الرضي ذو الحسبين. ويعرف بالشريف الموسوي نسبة الى أحد أجداده وهو موسى الرضا ابن جعفر الصادق.

ومما هو جدير بالذكر أن العرب أخذوا يدخلون الالقاب الفخمة على أسمائهم منذ قيام الدولة العباسية. ومثال ذلك السفاح والمنصور والرشيد والرضى. وهذه عادة فارسية اقتبسها العرب فيما اقتبسوه من الفرس.

طفولته

إنه وإن كانت كتب التاريخ لا تسعفنا بكثير أو قليل عن طفولة الشريف الرضى إلا أننا نستطيع أن نؤكد للقارىء أن صاحبنا قضى أيام طفولته كما يقضيها أبناء الأغنياء والموسرين . فقد كان والده كما ذكرنا سفيرا بين الخلفاء من بني العباس والملوك من بني بويه . ورسول سلام بين آل بويه أنفسهم . ومثل هذا الرجل لا بد أن تتوفر لديه أسباب الحياة ومظاهر الترف والنعيم . لذلك لا نعدو الصواب اذا قلنا إن الشريف ولد فى ساحة عز ورخاء وعاش أيامه الأولى فى سعادة وهناءة

ويلاحظ المرء أن الشريف الرضى كان راغبا عن الشهوات ، مبتعدا عن اللذات ، طموحا إلى المعالى . وهذا يدلنا على سمو الوسط الذى درج فيه ورقى البيئة التى نشأ بها وتغذى بلبانها فى الأعوام الأولى من عمره . قال وهو فى العاشرة من سنى حياته

المجد يعلم أن المجد من أربي ... وإن تماديت فى غي وفى لعب
إني لمن معشر إن جمعوا لعلى ... تفرقوا عن نبى أو وصى نبى
إذا هممت فنفتش عن شباهمتى ... تجده فى مهجات الأنجم الشهب
وإن حزمت فعزمى يستحيل قذى ... تدمى مسالكه فى أعين النوب

نقول حسب القارىء أن يمر على هذه الأبيات التى نظمها صاحبنا وهو بعد فى العاشرة من عمره ليعلم مقدار تأثير البيئة التى نبت فيها الرجل على نفسه وعلى عقليته وعلى تفكيره

ثقافته وتهذيبه

للمسلمين طريقة خاصة مازالت باقية حتى اليوم فى تثقيف أبنائهم . فهم يبدأون بتلقينهم القرآن . يحفظونهم إياه عن ظاهر قلب . فالغلمان مكلفون باستظهار مايقرر عليهم كل صباح . وويل لمن يذهب الى المكتب دون أن يحفظ ماقرر عليه . هنالك ينهال الفقيه عليه بالسوط دون رحمة أو شفقة .

وجريا وراء هذه العادة بدأ الشريف الرضى ثقافته بان قرأ القرآن على أبي اسحاق ابراهيم الطبرى وهو حدث . ثم أعاد حفظه بعد أن تخطى هذه السن .

وكانت أم الشريف تعنى بشؤون ابنيها عناية فائقة وتهتم بتثقيفهما وتهذيبهما منذ حداثتهما . فقد روى ابن أبي الحديدشارح نهج البلاغة أنها دخلت يوما المسجد الى أبي عبد الله محمد ابن النعمان الفقيه الامامى وحولها جواريها وبين يديها أبناها الرضى والمرتضى فقام اليها وسلم فقالت أيها الشيخ هذا ولداى قد أحضرتهما اليك لتعلمهما الفقه فتولى تعليمهما . وذكر ابن جنى ان الشريف الرضى احضر الى ابن السيرافى النحوى المشهور فتلقى عنه علم النحو

وكانت بين صاحبنا وبين ابن جنى صداقة متينة فقرأ عليه طويلا واستفاد منه كثيرا فى علم النحو والبلاغة والادب ونقد الشعر وتحليله

ولما مات ابن جنى صلى عليه الشريف وشهد دفنه ورثاه بقصيدة يجدها الباحث مثبتة فى ديوانه

ونستنتج من دراستنا لشعره أنه درس تاريخ عظماء المسلمين ووقف على كثير من اخبارهم وبخاصة زعماء الطالبيين أمثال الحسن والحسين كما نستنتج أن صاحبنا قد درس أدب من تقدمه بعناية فأتقنه وحفظ كثيرا من شعر من سبقه من الشعراء فنسج على منوالهم فيما نظمه

غير أن الشريف الرضى لم يعن بدراسة الفلسفة مع انتشارها فى عصره انتشارا كبيرا وظهور كثير من عظماء المسلمين أمثال الفارابى وابن سينا والمعرى وذيوعها على السنة الكتاب والشعراء امثال المعرى والمتنبى

بعض اساتذته

- ابن جني -

هو ابو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المشهور . كان من أئمة اللغة . أخذ الأدب عن الشيخ ابي علي الفارسي ثم زاول التدريس بالموصل ورحل الى بغداد . وقد وصفه الثعالبي بقوله « هو القطب في لسان العرب واليه انتهت الرياسة في الادب . وصحب ابا الطيب دهرا طويلا شرح شعره ونبه على معانيه واعرابه . »

كان أبوه جني مملوكا روميا لسليمان بن فهد بن أحمد الازدي الموصلي ومن مؤلفاته .

١ ـ كتاب الخصائص وسر الصناعة
٢ ـ المذكر والمؤنث والمقصور والممدود
٣ ـ التمام في شرح شعر الهزليين
٤ ـ مختصر في العروض
٥ ـ مختصر في القوافي
٦ ـ شرح ديوان المتنبي

وكان ابن جني يقول الشعر . وقد مدحه الشريف الرضي بقصيدة مطلعها

أراقب من طيف الحبيب وصالا

ويأبى خيال أن يزور خيالا

توفي سنة ٣٩٢ هـ ببغداد وصلى عليه الشريف الرضي كما أسلفنا وحضر دفنه ورثاه بقصيدة مطلعها

ألا يالقومي للخطوب الطوارق
وللعظم يرمى كل يوم بمارق
وللدهر يعرى جانبي من اقارني
ويقطع مابيني وبين الاصادق

* * *

— ابن السيرافي —

هو ابو محمد يوسف ابن أبي سعيد السيرافي . اصله من سيراف وهي مدينة ببلاد فارس خرج منها جماعة من العلماء والادباء .

كان عالما في النحو واللغة . باشر التدريس ببغداد وعليه تلقى الشريف الرضي علم النحو . وللسيرافي مؤلفات قيمة في علم النحو واللغة والاخبار توفي سنة ٣٨٥ هـ وعمره أكثر من خمسين عاما .

وقد رثاه صاحبنا بقصيدة نذكر منها

يايوسف ابن ابي سعيد دعوة
أوحى اليك بها ضمير موجم
إن الفجائع بالرجال كثيرة

ولقل من يرعى ومن يتفجع

لما رأيت الناس بعدك نكبوا

سنن الحفاظ فغادر ومضيع

قرطست في غرض الوفاء بقولة

لا يكون بعدك حافظا ماضيعوا

تصرفه وعمله

ولى الشريف نقابة الطالبيين وهى رياسة آل البيت العلوى والحكم فيهم أجمعين مستقلين عن طبقات الامة الاسلامية .

كان نقيبا فى بغداد أولا . ثم جعله بنو بويه نقيبا للطالبيين فى بلاد فارس بأجمعها . وكان يضم الى ذلك العمل النظر فى المظالم والحج بالناس

وهذه الاعمال كان يتولاها والده الطاهر ثم تنازل عنها لابنه الرضى مع أنه كان أصغر من أخيه المرتضى لان هذا قد شغل بالعلم عن الحكم ولان الرضى كان يعنى نفسه بالخلافة . وكان والده يخشى ان ينقم عليه الخلفاء العباسيون علو همته فيسند اليه هذه الاعمال ليشغله بها عن التفكير فى أمر الخلافة وليسكن خاطره الثائر ويخفف من حدته وغليانه قال الشريف

ولى النقابة خال أمى قبل ثم أبى وجدى
وليتها طفلا فهل مجد يعد مثل مجدى

ولكنه برم بها فردها إلى والده الذى توفى سنة ٤٠٠ هـ فاضطر صاحبنا الى القيام بأعبائها وبقى كذلك حتى مات سنة ٤٠٦ هـ فتولاها من بعده أخوه المرتضى .

وقد اتخذ الشريف فى أيام حياته دارا اسماها « دار العلم » وكان يجتمع بهذه الدار طلبة العلم الملازمون له . وقد عين لهم جميع ما يحتاجون

اليه . فكان بهذه الدار خزانة كبيرة لها مفاتيح كثيرة لكل طالب مفتاح خاص يفتح به الخزانة فى اى وقت شاء ويأخذ ما يريد دون حسيب أو رقيب

ثم إن صاحبنا كان يصرف كثيرا من وقته فى وضع الكتب وتاليف الرسائل ونظم القصائد الطويلة . فقد ترك اكثر من عشرة مؤلفات من بينها ديوان شعره الضخم وكتاب نهج البلاغة .

مذهبه

كان لمقتل على بن أبى طالب وابنه الحسين من بعده أثر سيء فى نفس فريق من المسلمين فتشيعوا لآل على وهؤلاء هم الشيعة . ومن رأى هذا الفريق أن الخلافة فى بيت على . وقد اجتهد الشيعة فى اختلاق الاحاديث التى تؤيد رأيهم وتعضد مذهبهم . وكانوا يذهبون الى أن الخلافة ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة إنما هى قضية أصولية وهذا مذهب سياسى كما ترى لأنه يتعلق بنظام الحكم .

وقد انقسم الشيعة من بادىء الامر الى فريقين .

١ — فرقة رأت أن الخلافة فى أولاد على مطلقا فجعلت بعد الحسين أخاه محمداً بن الحنفية فلما مات هذا انقسم أتباعه الى حزبين

(ا) حزب اعتقد بعدم وفاته وقال بانه موجود فى جبل من الجبال وبجواره بئر من عسل وآخر من ماء ومعه اسد وثمر يحرسانه . وكان هذا الحزب يدين برجعة محمد بن الحنفية وهؤلاء هم الشيعة الغالية .

(ب) وحزب آمن بوفاته فولى ابنه أبا هاشم بن محمد وهو الذى توفى بالحميمة من بلاد الشام عند أبناء عمه العباسيين ونزل لهم عن الخلافة بعد أن أوصاهم بالشيعة خيراً .

وهذان الحزبان ينضمان تحت اسم واحد وهو الشيعة الكيسانية : والذى وضع مذهب الشيعة الكيسانية هو المختار بن أبى عبيد الثقفى

الذى قام بثأر الحسين بن على وقتل اكثر الذى اشتركوا فى قتله بكربلاء قيل انه أخذ مذهبه من مولى لعلى بن أبى طالب اسمه كيسان وقيل كيسان هذا لقبه .

٢ — ورأت فرقة أخرى أن الخلافة فى أولاد على من فاطمة وأن الامام معين بالنص . وقد انقسم أفراد هذه الفرقة الى قسمين

(أ) فالقسم الاول كان يرى أن الامام منصوص عليه بالوصف . وأن الخلافة حق لكل فاطمى موصوف بالعلم والشجاعة والكرم والتقوى وهؤلاء هم الزيدية الذين أسسوا لهم دولة علوية فى طبرستان ومنهم أجداد الشريف الرضى لأمه . والزيدية باقية باليمن حتى العصر الحاضر .

« ب » أما القسم الثانى فكان يرى أن الامام منصوص عليه بالاسم ويذهبون الى ان الخلافة فى اولاد الحسين فيجعلون بعده ابنه عليا زين العابدين ثم أبناه من بعده . وهؤلاء هم الامامية الاثنا عشرية . والى هذا الحزب كان ينتمى صاحبنا بل أنه لأحد زعمائه الذين يشار اليهم بالبنان .

ومن معتقدات هذا الحزب أن الامام متصف بكل وصف كان يتصف به النبى من كونه أمين الله وهادى الخلق ووارث الارض وشفيع الناس . فهو مشارك للنبى فى كل فضيلة الا فى الرسالة . وفى ذلك يقول الشاعر

هذا امين الله بين عباده وبلاده ان عدت الامناء

هذا الشفيع لامة يأتي بها وجدوده لجدودها شفعاء

ومن معتقداته ان الامام حائز لشرف العصمة مثل النبي لا يصدر منه خطأ ولا تبد ومنه زلة لانه ملهم من الله بأعظم درجات الالهام ومؤيد منه بأكبر حدود التأييد . وفي ذلك يقول الشاعر

مؤيد باختيار الله يصحبه وليس فيما أراه الله من خلل

حساده

عانى الشريف الرضى كثيرا من كيد حاسديه الذين ما كانوا يتركون فرصة تمر دون أن يدسوا للرجل ويوقعوا بينه وبين ملوك آل بويه والخلفاء العباسيين. ومن أمثلة ذلك أن صاحبنا كان يقرض قصائد المديح ويبعث بها الى من قيلت فيهم. وجريا وراء هذه العادة نظم الشريف قصيدة فى مدح بهاء الدولة وبعث إليه بها. فانتهز أعداؤه فرصة وجودهم لدى بهاء الدولة وأخبروه بأن الشريف اعتاد ان ينشد قصائده للخلفاء وانه تكبر عن إنشاد القصيدة التى قالها فى بهاء الدولة فبعث بها إليه. وبلغ ذلك الشريف الرضى فآلمه الالم كله فكتب الى بهاء الدولة بهذه الابيات

جنانى شجاع إن مدحت وإنما
لسانى إن سيم النشيد جبان
وما ضر قوالا أطاع جنانه
إذا خانه عند الملوك لسان
ورب حيى فى السلام وقلبه
وقاح اذا لف الجياد طعان
ورب وقاح الوجه يحمل كفه
أنامل لم يعرق بهن عنان
وفخر الفتى بالقول لا بنشيده

ويروى فلان مرة وفلان

وبلغ الشريف الرضى أن قوما اجتمعوا بداراً حدأصدقائه وتكلموا في حقه بما لايجب وأجروا ألسنتهم بشيء من القدح فبعث الى صديقه هذا بقصيدة نذكر منها

مارقع الواشون في ولفقوا
قل لي فأما حاسد أو مشفق
في كل يوم ظهر داري مضرب
لكلامهم وجبين دارك مشرق
من كان يغتاب الرجال وهم أن
يبلو الاصادق فالصديق المطرق
جار الزمان فلا صديق يرتجى
للنائبات ولا صديق يشفق
وطغى على فكل رحب ضيق
إن قلت فيه وكل حبل يخنق

نفسيته

ليس من العسير علينا أن نفهم نفسية الشريف الرضى إذا نحن ذهبنا نطالع ماحواه ديوانه قصيدة قصيدة . فشعر الرجل مرآة صادقة لما كانت عليه نفسيته من حب للطموح وعشق للمعالى وميل للرفعة والسمو ورغبة عن الهزل وترفع عن سفاسف الأمور . قال :-

لغير العلا منى القلى والتجنب
ولولا العلا ما كنت فى الحب ارغب

وقال

وأعرض عن كأس النديم كأنها
وميض غمام غائر المزن خلب
وقور فلا الألحان تأسر عزمتى
ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها
ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

* * *

كان الشريف الرضى ارستقراطيا بكل معنى الكلمة . يضم بين جوانحه نفسا عظيمة ترى أنها لاتقل عن أى مخلوق يعيش حولها . انظر إليه حين يخاطب الخليفة القادر بالله

عطفا أمير المؤمنين فأننا فى دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت
أبدا كلانا في المفاخر معرق
الا الخلافه ميزتك فانني
أنا عاطل منها وأنت مطوق

وحين يقول

لي مهجة لا أرى لها عوضا غير بلوغ العلا ولا ثمنا

obeikandl.com

آماله وامانيه

الشريف الرضى من نسل على ابن ابى طالب وزعيم الشيعة الاثنا عشرية كما قدمنا . فهو يريد الخلافة لنفسه ويرغب فى ان يكون خليفة على المسلمين . لا يهدأ له بال ولا يسكن له خاطر ولا يحلو له عيش ولا تصفو له حياة الا اذا جلس على كرسى الخلافة

ولقد قرأ الشريف كثيرا من تاريخ أجداده ووقف على تفاصيل ماوقع على العلويين من ظلم واضطهاد ، لذلك كان همه الوحيد هو انتزاع الخلافة من أيدى العباسيين

* * *

ومما شجع الشريف الرضى على الاسترسال فى آماله مارآه من ضعف الخلافة العباسية ضعفا تاما وما شاهده من انحلالها وذهاب نفوذها وسلطانها . وقد بينا ذلك عند الكلام عن الحالة السياسية .

ومما شجعه كذلك أن آل بويه كانوا من غلاة الشيعة الذين يدينون بالولاء لآل على . ويحدثنا التاريخ ان الملوك البويهيين كانوا يحرضون النساء على الخروج وعمل المناحات والبكاء والعويل فى شوارع بغداد وطرقاتها فى مثل اليوم الذى قتل فيه الحسين أبن على من كل عام. وكان الشريف يرى ذلك بعينى رأسه فتقوى أمله ويزداد تعلقه بالخلافة وجلالها

وكان للشريف الرضى أنصار كثيرون منهم ابو اسحاق الصابىء الذى كان يزعم أن طالع صاحبنا يدل على أنه سيرقى حتما إلى هذا المنصب الرفيع . وكانت تدور بينهما قصائد بهذا المعنى . ومثال ذلك قول ابى اسحاق الصابىء وقد بعث به إلى الشريف .

أبا حسن لى فى الرجال فراسة
تعودت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتنى عنك أنك ماجد
سترقى من العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه
وقلت أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها
إلى ان أرى إطلاقها لى مطلقا
فأن عشت أو أن مت فاذكر بشارتى
وأوجب بها حقا عليك محققا
وكن لى فى الاولاد والاهل حافظا
إذا ما اطمأن الجنب فى موضع البقا

فأجابه الشريف بقصيدة نذكر منها

سننت لهذا الرمح غربا مذلقا
وأجريت فى ذا الهندوانى دونقا

وسومت ذا الطرف الجواد وانما
شرعت له نهجا نخب واعنقا
لئن برقت منى مخايل عارض
لعينيك يقضى ان يجود ويغدقا
فليس بساق قبل ربعك مربعا
وليس براق قبل جودك مرتقى

ثم ان ملوك آل بويه كانوا يمنونه بها ويعدونه بقرب صيرورتها إليه فلا عجب إن سيطر حلم الخلافة على الرجل وملك عليه مشاعره وأصبح شبحها ماثلا أمام عينيه فى القومة والقعدة وفى المنام واليقظة وفى كل مكان يذهب اليه .

الخلافة . . الخلافة . . منصب الخلافة . . جلال الخلافة . . عظمة الخلافة . . مكانة الخلافة . هيبة الخلافة . . سلطان الخلافة . . جاه الخلافة . . هذا هو ما كان يردده الشريف الرضى آناء الليل وأطراف النهار . قال

أرى نفسى تتوق إلى النجوم
سأحملها على الخطر العظيم
ولى أمل كعهد الرمح ماض
سوى أن الليالى من خصومى
ومالى همـــة إلا المعـــالى
وذب الضيم عن نسب صميم

لماذا فشل ؟؟

ذكرنا عند الحديث عن الدين أن الناس فى عصر الشريف الرضى كانوا يتخذون العقيدة وسيلة لتحقيق المطامع ونيل المآرب . وبنو بويه كانوا من أئمة من يستترون وراء الدين للوصول إلى أمانيهم والظفر بحاجاتهم .

كانوا يشجعون العلويين ويتظاهرون بحب آل على وهم غير صادقين والبويهيون قوم من الفرس أتاح لهم ضعف الخلافة العباسية فرصة الوصول إلى مناصب الحكم فلم يهتموا إلا بسعادة أنفسهم ولم يعنوا إلا بمصالح أنفسهم ولم يعبأوا إلا بشئون أنفسهم . قامت فى الارض خلافة أم لم تقم ، ذهب الاسلام أم بقى . كل ذلك هين وحقير فى سبيل سعادتهم ورفاهيتهم .

ولقد رأينا فى الفصل الأول أن عز الدولة بختيار أحد هؤلاء الملوك يلهو ويلعب فى نواحى العراق بينما جيوش الروم تنزل بأهل الشام أشد أنواع العذاب وتأسر آلاف الفتيان والفتيات وترسلهم إلى جهات آسيا الصغرى حيث يحولون من الدين الاسلامى إلى الدين

المسيحي . ثم رأينا بختيار نفسه يرغم الخليفة المطيع على دفع أربعمائة ألف درهم ويأخذها وينفقها على ملذاته الخاصة . ورأينا بهاء الدولة يعوزه المال فيعمد الى الخليفة الطائع ويقبض عليه وينهب ما في قصر الخلافة من ذهب وفضة وفراش وأثاث .

ومن ناحية أخرى رأينا عضد الدولة يقبض على والد الشريف الرضى وهو زعيم العلويين وعلى عم الشريف ويرسلهما إلى بلاد فارس حيث سجنا في قلعة هناك بقيا فيها إلى أن مات عضد الدولة وخلفه ابنه شرف الدولة فأطلق سراحهما واصطحبهما معه حين قدم بغداد .

فلو كان البويهيون صادقين فيما يدعون من حب لآل علي لما تأخروا في نقل الخلافة من العباسيين إلى الطالبيين . أجل ! لقد كان في صدورهم ذلك ولكنهم كما ذكرنا كانوا ينظرون إلى مصلحة أنفسهم قبل كل شيء . ومصلحتهم كانت تقضي عليهم بابقاء الخلافة العباسية لأنهم يستطيعون الاستفادة من ضعف العباسيين بينما لو آل الأمر إلى العلويين لكانت الخلافة الجديدة قوية الجانب عزيزة المكان وربما يتعرض سلطان البويهيين للضياع .

ثم إن الشريف الرضى كان — فيما يظهر من شعره — يحلم باعادة

الامبراطورية العربية إلى ما كانت عليه أيام مجدها وعزها . وهو قبل كل شيء عربي النزعة شديد التعصب للعرب والعربية فلو ولي الخلافة لكان هذا ضربة قاضية على نفوذ الترك والديلم على السواء ولتقلص ظل البويهيين وأمثالهم ممن ظهروا على أثر الانحلال الذي أصاب جسم الامبراطورية الاسلامية . وفي هذا ما يجعل بني بويه يعملون للشريف الرضي ألف حساب

وغريب من صاحبنا أن ينتظر من البويهيين أن يعينوه على تولي الخلافة مع ما عرف من ميله الشديد إلى إعادة مجد الامبراطورية الاسلامية . وذلك لأن البويهيين لم يظهروا ولم تقم لهم قائمة إلا بفضل ما أصاب الامبراطورية العربية من وهن وضعف وتفكك وانحلال فكأنه طلب منهم أن ينتحروا فأبوا .

وظل الرجل يضاجع الاحلام ويعرض الآمال مشغوفا بها لا يملك إلا لسانه وهيهات أن ينفع اللسان وحده في مثل هذه الظروف . إن الذين يطلبون السلطان ويرغبون في الحكم لا أقل من أن يستعملوا السيف وسيلة للوصول إلى غايتهم وبلوغ مراميهم . وكان الشريف الرضي أبعد من أن يستخدم السيف .

لقد دنت أسرة الشريف الرضى من الحكم فيحدثنا التاريخ أن المأمون الخليفة العباسى بايع لعلى الرضا الجد الرابع لصاحبنا بولاية العهد . ولما سئل عن السر فى ذلك أجاب بأنه نظر الى من حوله من العباسيين والطالبيين فلم يجد اكفأ منه . ولكن عليا مات قبل المأمون وبذلك بعد الحكم عن أسرة الرجل .

* * *

ولا ننسى أن الخلفاء العباسيين كانوا يتقربون من البويهيين ويجتهدون فى توثيق العلاقات بينهم وبين آل بويه . ففى سنة ٣٦٤ هـ تزوج الخليفة الطائع شاه زمان بنت عضد الدولة على صداق قدره مائة آلف دينار وكتب العقد القاضى ابو بكر بن قريعه . وكان غرض عضد الدولة أن تلد بنته ولدا ذكرا يكون فيما بعد خليفة للمسلمين . ولما تولى القادر بالله تزوج بنت بهاء الدولة ودفع صداقا قدره مائة ألف دينار ولكنها ماتت قبل أن يدخل بها .

يأسه وحزنه

مرت السنون تباعا والشريف الرضى ينتظر تحقيق آماله والظفر بأمانيه والوصول الى غايته ولكن على غير جدوى . فأدرك الرجل أن البويهيين فى تشيعهم لآل علي غير صادقين . فشعر بالخيبة والفشل فيما كان يسعى اليه ويعنى نفسه به . واصطدم بالحقيقة المرة اصطداما بينا . فأخذ يبكى وينوح ويندب آماله الضائعة . انظر اليه حين يقول

وعدت يادهر شيئا بت أرقبه ... وما أرى منك إلا وعد عرقوب
وحاجة أتقاضاها وتمطلنى ... كأنها حاجة فى نفس يعقوب
لأتعبن على البيداء راحلة ... والليل بالريح خفاق الجلاليب

لقد إتخذ اليأس يسرى فى الرجل وشاعت روح الحزن والكآبة فى شعره قال

مامقامى على الهوان وعندى ... مقول صارم وأنف حمى
وإباء يحاق بى عن الضيم ... كما راغ طائر وحشى
أى عذر له إلى المجد إن ... ذل غلام فى غمده المشرفى
أجهل الضيم فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى اذا ضامنى البعيد القصى

لف عرقى بعرقه سيد النا س جميعا محمد وعلى
إن ذلى بذلك الجو عز وأوامى بذلك النقع رى
قد يزل العزيز مالم يشمر لانطلاق وقد يضام الأبى
إن شراً على اسراع عزمى فى طلاب العلا وحظى بطى
أرتضى بالأذى ولم يقف العز م قصورا ولم تعز المطى
كالذى يخبط الظلام وقد أقم ر من خلفه النهار المضى

فوصلت هذه الأبيات إلى يد الخليفة القادر بالله فغضب غضباً شديدا وعقد مجلساً وأحضر فيه أبا الطاهر الموسوى والد الشريف الرضى وابنه المرتضى وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء وأبرز لهم أبيات الشريف السالفة الذكر . وتقدم حاجب الخليفة وقال للنقيب أبى احمد (والد الرضى) (ذل لولدك محمد «الشريف الرضى» أى هوان قد أقام عليه عندنا ؟؟ وأى ضيم لقى من جهتنا ؟ وأى ذل أصابه فى ملكنا ؟ وما الذى يعمل معه صاحب مصر لو مضى اليه ؟ أكان يصنع معه أكثر من صنيعنا ؟؟ ألم نوله النقابة ؟؟ ألم نوله المظالم ؟؟ ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز وجعلناه أمير الحج ؟؟ فهل كان يحصل له من صاحب مصر أكثر من هذا ؟؟ مانظنه كان يكون لو حصل عنده إلا واحدا من

أفتاء الطالبيين؟؟)

فقال النقيب ابو احمد (أما هذا الشعر فما لم نسمعه منه ولا رأيناه بخطه ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحله إياه وعزاه اليه) فقال القادر (إن كان كذلك فليكتب الآن محضر بذلك يشهد فيه جميع من حضر المجلس منهم النقيب أبو احمد (والد الشريف وابنه المرتضى)

وكان هذا المحضر الذى هو بمثابة اعتراف أو إقرار يتضمن قدحا فى نسب العلويين حكام مصر فى ذلك الحين . وحمل الى الرضى ليوقع عليه . حمله إليه أبوه واخوه المرتضى . ولكن الشريف أمتنع عن التوقيع وقال إنه يخشى دعاة المصريين وأنكر الشعر واعترف كتابة بأنه ليس بشعره ولا يعرفه . وحاول أبوه أن يقنعه بكتابة أسمه تحت مايختص بالقدح فى الفاطميين ولكن الرجل أبى اباء شديداً وقال انه (يخاف دعاة الفاطميين وغيلتهم وأنهم معروفون بذلك) فقال أبوه (ياعجباه !! أتخاف ممن بينك وبينه ستمائة فرسخ ولا تخف ممن بينك وبينه مائة ذراع) وحلف ألا يكلمه وكذلك اخوه المرتضى . فعلا ذلك خوفا من القادر وتسكينا له . ولما انتهى الأمر إلى الخليفة القادر بالله سكت عن سوء أضمره له . وبعد ذلك بأيام صرفه عن النقابة وولاها

محمد ابن عمر

* * *

يرى القارىء مما تقدم أن الشريف الرضى أنكر الشعر وأقر بأنه ليس من قوله . فأن صح ذلك فأننا لانقبل هذا الانكار لأن روح الرجل ظاهرة فى هذا الشعر بوضوح وجلاء . ولعمرى إن استطاع صاحبنا أن ينكر قصيدته السالفة فما هو بمستطيع أن ينكر قصيدته التى مطلعها

قعد الراضون بالذل فقم إنما الماضى اذا هم عزم
ما مقامى غير محض نية دائبا أهدر كالفحل السدم
أعرض الآمال مشغوفا بها ثم أنساها إذا الخطب ألم
طال لبثى سادرا فى غمة وقديما كنت فراج الهمم

وهى طويلة . ولو تأملها القارىء لوجد بينها وبين القصيدة السالفة شبها كبيراً .

صفاته وأخلاقه

١ ـ عفته

كان صاحبنا عفيفاً شريف النفس عالى الهمة لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة حتى أنه رد صلات أبيه . وقد أجتهد بنو بويه فى حمله على قبول صلاتهم فلم يفلحوا فى ذلك . وقد روى ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة أن الشريف كان يتلقى علوم الدين عن أبن الطبرى الفقيه المالكى فسأله هذا يوما عن محل إقامته فأجاب الشريف بأنه يقيم فى دار أبيه فقال ابن الطبرى مثلك لايقيم بدار أبيه . قد نحلتك دارى بالكرخ المعروفة بدار البركة فامتنع الرضى عن قبولها وقال إنه لم يقبل من أبيه قط شيئاً ولكن ابن الطبرى ألح عليه حتى أن الشريف لم يجد مناصا من قبولها .

وحكى أن فخر الملك أحد وزراء آل بويه سمع ذات يوم أن الشريف قد ولد له غلام فارسل اليه بطبق فيه ألف دينار فرده وقال قد علم الوزير أنى لا آخذ من أحد شيئاً . ولكن فخر الملك ارسله ثانيا وقال

إنما هو للقوابل فرده الشريف وقال إننا أهل بيت ولا تدخل علينا قابلة غريبة انما يتولى ذلك الأمر العجائز من نسائنا وهن لا يأخذن على ذلك أجراً . فأعاده الوزير وقال ليفرقه الشريف على ملازميه من طلاب العلم فقال الشريف هاهم حضور فليأخذ كل أحد مايريد . فلم يقبل أحد من هؤلاء الطلاب أن يأخذ شيئا وإخيرا رجع المال الى الوزير .

٣ - مزاجه

وقد امتاز الشريف الرضى بمزاج سوداوى جعله يؤثر الجد على الهزل . ويبتعد عن مجالس اللهو وأمكنة الخلاعة والمجون . وكان يشرب الخمر ولكن بمقادير قليلة كما كان وقورا لا يستخفه الطرب ولا تلعب الصهباء برأسه حين يشرب . قال

وقور فلا الالحان تأسر عزمتى ولا تعكر الصهباء بى حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء الا بوصفها ولا انطق العوراء والقلب مغضب

٣ — قسوته

وكان الشريف الرضى ينسب الى الأفراط فى عقاب الجانى من أهله وقد حدث أن امرأة علوية شكت اليه زوجها وكان يقامر بما يحصل عليه من عمله الذى يقوم به وهو فقير وذو عائلة وشهد لها من حضر بالصدق فيما ذكرت فاستحضره الشريف وأمر به فبطح وأشار بضربه فضرب مائة خشبة حتى كاد الرجل أن يموت لولا أن صاحت المرأة (وايتم أولادى ، كيف تكون حالنا إذا مات) فكلمها الشريف بكلام فظ وقال ظننت أنك تشكينه الى المعلم .

٤ — ذكاؤه

وكان صاحبنا شديد الذكاء . فذكر ابن خلكان أنه أحضر الى ابن السيرافى النحوى وهو لم يتجاوز العاشرة من سنى حياته وأنه جلس معه يوما فذاكره بشىء من الاعراب على عادة المعلمين فقال . إذا قلنا رأيت عمرو فما علامة النصب فى عمرو فقال الشريف بفض على فعجب ابن السيرافى والحاضرون من حدة خاطره .

ثم ان الرجل ابتدأ يقرض الشعر وهو فى العاشرة من عمره

٥ – وفاؤه

ويرى المطالع لشعر الشريف مايدل على ما امتاز به من وفاء لاصحابه وخلانه . ومن أمثلة ذلك أنه كانت بينه وبين الخليفة الطائع صداقة قوية ومحبة أكيدة فمدحه صاحبنا بقصائد كثيرة . ثم واساه بقصيدة يوم قبض عليه الديلم وواساه بقصيدة أخرى . ولما مات الطائع رثاه بقصيدة طويلة .

وكان كلما مر بقبر أبي اسحاق الصابىء وقف خاشعا وله فى كل وقفة قصيدة لو تدبرها القارىء لوجد فيها آيات الوفاء واضحة جلية ومن هذه القصائد تلك التى مطلعها

لولا يذم الركب عندك موقفي ... حييت قبرك يا أبا اسحاق

كيف اشتياقك مذ نأيت الى أخ ... قلق الضمير اليك بالأشواق

هل تذكر الزمن الانيق وعيشنا ... يحلو على متأمل ومذاق

وليالى الصبوات وهى قصائر ... خطف الوميض بعارض مبراق

اسراع الشيب اليه

يظهر أن مزاج الشريف الرضى السوداوى وحياته الخاصة التى كان يحياها والافكار الكثيرة التى استأثرت به وأقضت مضجعه وأرقته طويلا والامنية السامية التى كان يتطلع اليها . نقول يظهر أن كل هذه الاشياء قد تحالفت على الرجل وأثرت فيه فاشتعل رأسه شيبا وهو بعد فى العام الثالث والعشرين من عمره . قال

عجلت ياشيب على مفرقى وأى عذر لك أن تعجلا
فكيف أقدمت على عارض مااستغرق الشعر ولا استكملا
كنت أرى العشرين لى جنة من طارقات الشيب إن أقبلا
فالآن سيان ابن أم الصبا ومن تسدى العمر الأطولا
يازائرا ما جاء حتى مضى وعارضا ماجاد حتى انجلى
ليت بياضا جاءنى آخرا فدى بياضا كان لى أولا

— وفاته —

كان للحقيقة المرة التي اصطدم بها الشريف الرضى وخيبته وفشله فيما كان يسعى اليه أثر سيء في نفسه وفي صحته . فقد كان شديد الحقد ، كثير العبوس ، عظيم الحزن ، دائم الغليان فلا عجب ان أخذ جسمه يذبل شيئا فشيئا وشرعت قواه في التدهور والانحلال يوما بعد يوم . وسرعان ما اختطفته يد المنون وهو في شرخ الصبا لقد مات حزينا ساخطا دهره . ناقما على الدنيا وما فيها وما ومن فيها.

ادركته المنية في يوم الاحد سادس محرم سنة ٤٠٦ هـ ببغداد فجزع أخوه المرتضى جزعا شديداً حتى انه لم يشترك في الصلاة عليه ولم يستطع حضور دفنه . وصلى عليه الوزير فخر الملك وكثير من العظماء والنبلاء ودفن بداره بالكرخ ثم نقل الى مشهد الحسين بكربلا حيث دفن بجوار أبيه .

وكان صاحبنا عند وفاته قد بلغ العام الثالث والأربعين من عمره

مراثي الشعراء له

ولما مات الشريف الرضي رثاه أخوه المرتضى بقصيدة نذكر منها

يالرجال لفجعة جذمت يدي ... ووددت لو ذهبت على براسي
مازلت أصدر وردها حتى أتت ... فحسوتها في بعض ما انا حاسي
ومطلتها زمنا فلما صممت ... لم يثنها مطلي وطول مكاسي
لله عمرك من قصير طاهر ... ولرب عمر طال بالأرجاس

ورثاه تلميذه مهيار الديلمي بقصائد كثيرة جاء في إحداها

بكر النعي فقال : أردى خيرها ... ان كان يصدق فالرضي هو الردى
عادت أراكة هاشم من بعده ... خوراً لفأس الحاطب المتوقد
فجعت بمعجز آية مشهودة ... ولرب آيات لها لم تشهد
كانت اذا هي في الامامة نوزعت ... ثم ادعت بك حقها لم تجحد
تبعتك عاقدة عليك امورها ... وعرى تميمك بعد لما تعقد
ورآك طفلا شيبها وكهولها ... فتزحزحوا لك عن مكان السيد
انفقت عمرك ضائعا في حفظها ... وعققت عيشك في صلاح المفسد
كالنار للسارى الهداية والقرى ... من ضوئها ودخانها للموقد